جامعة المسيلة قسم التاريخ

دعامة بيداغوجية موجهة لطلبة السنة الأولى ماستر

التخصص: تاريخ الوطن العربي المعاصر

المقياس: الاستشراق وتاريخ الوطن العربي المعاصر

الأستاذ/ د.عبد القادر خليفي

المحاضرة السادسة: المواقف من الانتاج الاستشراقي

تمهيد: لقد تعددت اهتمامات المستشرقين بالتراث العربي الإسلامي، فكان التعاطي مع المصادر الأصيلة للمعلومات، والمتمثلة في المخطوطات التي خضعت للحفظ والتحقيق، واعتنى هؤلاء بالمؤلفات في مختلف حقول المعرفة، حيث عملوا على إعادة بعثها وترجمتها والتعليق عليها،والقيام بدراسات لغوية وتاريخية وفنية لانتاجات العرب والمسلمين، وهي الجهود التي ظهرت بشأنها مواقف متباينة نرصدها على النحو الآتي.

1/ موقف الانبهار: ويرى أصحابه من المنبهرين بأن ما قدمه المستشرقون يمثل جهدا رائعا قدم خدمات جليلة للحضارة الإسلامية والتراث العربي، وأن أعمال هؤلاء قد توفرت لها المناهج العلمية والأدوات والوسائل ومن ثمة جاءت نتائجها واستخلاصاتها مطابقة للواقع، وبالغ البعض في ذكر فضائل المستشرقين، حينما رأوا بأنهم قد أنقذوا الأمة من جهالتها وأخرجوها من ضلالتها.

وقد بلغ الأمر بالبعض إلى الارتماء في أحضان المنتوج الاستشراقي والترويج له، على أساس أنه العلم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه، ورأوا في الأفكار المروجة من لدن أساطينه، بأنها مفتاح النجاة، ومن ذلك، ما ذهب إليه المفكر الاشتراكي المصري المسيحي سلامة موسى (1887 – 1958م) في مطلع القرن العشرين، حيث دعا إلى وجوب محاكاة الحضارة الغربية لبلوغ الحياة الكريمة: " لا يمكن لأية أمة أن تحيا إذا خالفتها ... ولا أستطيع أن أتصور نهضة عصرية لأمة شرقية ما لم تقم على المبادئ الأوربية للحرية والمساواة والدستور مع النظرة العلمية الموضوعية للكون " كما دعا الأديب طه حسين إلى محاكاة الغرب في نمط

عيشه في كتابه " مستقبل الثقافة في مصر "حيث كتب يقول: " أن نسير سيرة الأوربيين، ونسلك طريقهم لنكون لهم أندادا، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب منها وما يكره "، وأكثر من ذلك، فقد شكك في بعض القصص القرآني مثل قصة سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل في كتابه " في الشعر الجاهلي " الصادر عام 1926م.

ويرى محمد كرد علي، بأنه " لولا عناية المستعربين بإحياء آثارنا لما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة، وطبقات الحفاظ، ومعجم ما استعجم، وفتوح البلدان وفهرست ابن النديم...إلى عشرات من كتب الجغرافية والرحلات التي فتحت أمامنا معرفة بلادنا في الماضي، وبها وقفنا على درجة حضارتها، ولولا إحياؤهم تاريخ ابن جرير وابن الأثير...لجهلنا تاريخنا الصحيح، وأصبحنا في عماية من أمرنا ".

2/ موقف الرفض: ويقوم على فكرة أن الاستشراق لم ينطلق من قاعدة علمية مجردة وموضوعية، بل إن هناك دوافع وأهدافا غير علمية ساقت المستشرقين إلى هذا المجال، خدمة لأغراض استعمارية وتنصيرية، وتجارية، واقتصادية وسياسية، وفي هذا الصدد، يقول الباحث صلاح الدين المنجد : " لقد أثّرت في دراساتهم مآرب السياسة والتعصب، فوجهوا الحقائق وفسروها بما يوافق أغراضهم...ولعل هذا الأمر، هو الذي دفع الشرقيين من العرب والمسلمين في أن يرتابوا من المستشرقين جميعا، لأن من المؤسف أن يسخر هؤلاء العلم الذي يسمو به الإنسان لإذلال الإنسان، أو استعباده، أو الطعن في تراثه بغير الحق ".

ويذهب مالك بن نبي، إلى أن إنتاج المستشرقين: " كان شرا على المجتمع الإسلامي، لأنه ركّب في تطوره العقلي عقدة حرمان، سواء في صورة المديح والإطراء، التي حولت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر، وغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا، أو في صورة التفنيد والإقلال من شأننا بحيث صيرتنا حماة الضيم لمجتمع منهار ".

3/ الموقف المتوازن: وهو القائم على الدراسة والبحث والغوص في إسهامات المستشرقين ،والتعرف على مواطن الخلل والزلل فيها، مع الدراية الواعية والكاملة بعناصر القوة في الإسلام وحضارته، ومن ثمة لا يقر أصحاب هذه المدرسة إقرارا

تاما بما حملته تلك الأطروحات، ولا يرفضونها جملة وتفصيلا بالمقابل، وهذه المواجهة الايجابية، تعترف بتأثير ظاهرة الاستشراق على المتلقين من المسلمين على المستويات العقدية والفكرية والثقافية، وتقر بأن المنتسبين إليها فيهم الكائدون الحاقدون، وفيهم النزهاء المتجرّدون، الذين يعودون إلى جادة الصواب، حين يبصّرون بالأخطاء التي وقعوا فيها.

يشيد الباحث في الدراسات الأثرية الإسلامية زكي محمد حسن (1908-1957م) بجهود المستشرقين، مشيرا إلى مسألة التنبه إلى الأخطاء والانحرافات التي شابت أعمال فريق منهم، حيث كتب: " ولا ريب في أن بعض المستشرقين لا تلين لهم قناة اللغة العربية، بحيث يصبحون في مأمن من سوء الفهم، ومجانبة التفسير الصحيح، وما من شك، في أن بعض المستشرقين يعميهم التعصب الديني أو القومي عن الحقائق، أو يدفعهم إلى قلبها، ولكن هذا لا يقلل من فضل المستشرقين في العناية بتاريخ حضارتنا، وفي دفعنا إلى العناية بها في أسلوب علمي سليم، نستطيع بواسطته أن نكمل ما في دراستهم من نقص، أو نقوّم ما فيها من عيوب ".

ويقول الباحث منذر معاليقي " لا يجب أن تعمينا كتابات بعض المستشرقين المشبوهة، عن رؤية الايجابيات المعرفية والحضارية لمستشرقين بحثوا عن المعرفة، وجهدوا في أن تصبح هذه المعرفة ملكا للبشرية كافة ".